وضعف رأيه حتى كادت الدولة أن تذهب، وتقاصر ظلها وهلكت الرعايا وانقطعت الطرق ومات كثير من أهل صنعاء جوعاً بسبب حصارها، فعند ذلك وقع من مولانا المتوكل على اللَّه ما سيأتي في ترجمة والده رحمه اللَّه. وكانت البيعة له في الليلة التي مات فيها والده وهي ليلة خامس عشر شهر رمضان سنة ١٢٢٤ أربع وعشرين ومائتين وألف. وكنت أول من بايعه، وتوليت قبض البيعة له من إخوته وأعمامه وسائر آل الإمام القاسم، وأعيان العلماء والرؤساء، وكان تحرير هذه الترجمة في اليوم الثاني من بيعته. وتولى وزارته الفقيه عليّ بن إسماعيل فارع. وشاركه في بعض الأعمال القاضي حَسن بن علي عبد الواسع. ثم (توفي) رحمه اللَّه ليلة الأربعاء لعله سابع عشر شهر شوّال سنة ١٢٣١ إحدى وثلاثين ومائتين وألف. وقام بعده ولده عبد اللَّه، وتلقب بالمهدي، وكنت المتولي لأخذ البيعة له بعد مبايعتي له، وستأتي له ترجمة مستقلة إن شاء اللَّه تعالى.

٤٦

(أحمد بن علي بن عبد القادر بن مُحمَّد ابن إبراهيم بن مُحمَّد بن تميم بن عبد الصَّمد بن أبي الحسن ابن عبد الصَّمد بن تميم)[1]

التقيّ أبو العباس الحسينيّ العبيديّ البعليّ الأصل القاهريّ. ويُعرف بابن المقريزي، وهي نسبة لحارة في بعلبك تعرف بحارة المقارزة، (قال السخاوي): كان مولده حسبما كان يخبر به ويكتبه، بعد الستين، يعني وسبعمائة. وقال ابن حَجَر: إنه رأى بخطه ما يدل على تعيينه في سنة ٦٦ ستٍّ وستين بالقاهرة، ونشأ بها نشأة حسنة فحفظ القرآن وسمع من جماعة من الشيوخ كالآمدي، والبلقيني، والعراقي، والهيثمي. وحجّ فسمع بمكة من علمائها، وسمع في الشام من جماعة، واشتغل كثيراً، وطاف على الشيوخ، ولقي الكبار، وجالس الأئمة، وتفقه حنفياً على مذهب جدّهِ لأُمّه، ثم تحول شافعياً (قال السخاوي): ولكن كان مائلاً إلى الظاهر، وكذا قال ابن حجر: إنه أحبّ الحديث فواظب عليه حتى كان يتهم بمذهب ابن حَزْم. انتهى. ونظر في عدة فنون، وشارك في الفضائل، وقال النظم والنثر، وناب في الحكم وكتب

(١) ترجمته في: الضوء اللامع: ٢/ ٢١؛ شذرات الذهب: ٧/ ٢٥٥؛ المنهل الصافي: ١/ ٣٩٤؛ كشف الظنون: ٧، ٧١، ١٥٨، ١٧٠؛ إيضاح المكنون: ١/ ١٠٠، ٢٠٧، ٢/ ٥١٢؛ معجم المؤلفين: ٢/ ١١؛ الأعلام: ١/ ١٧٧؛ تاريخ الأدب العربي، فروخ: ٣/ ٨٤٤؛ تاريخ آداب اللغة: ٢/ ١٨٤.

التوقيع، وولي الحسبة بالقاهرة غير مرة، والخطابة بجامع عمرو، والإمامة بجامع الحاكم، وقراءة الحديث بالمؤيدة، وحُمدت سيرته في مباشراته كلّها، وكان قد اتصل بالظاهر برقوق، ودخل دمشق مع ولده الناصر، وعرض عليه قضاءَها مراراً فأبى، وصحب (بشيك الدوادار) وقتاً، ونالته منه دنيا، وحجّ غير مرة، وجاور، وكذا دخل دمشق مراراً وتولى بها تداريس، ثم أعرض عن جميع ذلك، وأقام ببلده عاكفاً على الاشتغال بالتاريخ حتى اشتهر به ذكره، وبعد فيه صيته، وصارت له فيه جملة تصانيف (كالخطط والآثار للقاهرة) وهو من أحسن الكتب وأنفعها، وفيه عجائب ومواعظ، وكان فيه ينشر محاسن العبيدية ويفخم شأنهم ويشيد بذكر مناقبهم. وكنت قبل أن أعرف انتسابه إليهم أعجب من ذلك كونه على غير مذهبهم، فلما وقفت على نسبه علمت أنه استروح إلى ذكر مناقب سلفه (قال السخاوي): إن المترجم له ظفر بمسودة للأوحدي في خطط القاهرة وآثارها فأخذها وزاد فيها زوائد غير طائلة ونسبها لنفسه. انتهى. والرجل غير مدفوع عن فضلٍ لا سيما في التاريخ وما يتعلق به واللَّه أعلم. ومن مؤلفاته (درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة) ذكر فيه من عاصره، و(وإمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والحفدة والمتاع) و(عقد جواهر الأسفاط في ملوك مصر والفسطاط) و(البيان والإعراب عمّا في أرض مصر من الأعراب) و(الإلمام فيما بأرض الحبشة من ملوك الإسلام) و(الطرفة الغريبة في أخبار وادي حضرموت العجيبة) و(معرفة ما يجب لأهل البيت النبوي على من عداهم) و(إيقاظ الحنفاء، بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء) و(السلوك، بمعرفة دول الملوك) و(التاريخ الكبير) وهو في ستة عشر مجلداً، وله مؤلفات غير هذه، وَوُجِد بخطه أن تصانيفه زادت على مائتي مجلد، وأن كبار شيوخه بلغت ستمائة نفس. وكان متبحراً في التاريخ على اختلاف أنواعه. ومؤلفاته تشهد له بذلك وإن جحده السخاوي فذلك دأبه في غالب أعيان معاصريه. وكان حسن الخبرة بالزايرجة، والأسطرلاب، والرمل، والميقات. (قال ابن حَجَر) في ترجمته: له النظم الفائق، والنثر الرائق، والتصانيف الباهرة، خصوصاً في تاريخ القاهرة، فإنه أحيا معالمها، وأوضح مجاهلها، وجدد مآثرها، وترجم أعيانها. (قال): وكان حسن الصحبة، حلو المحاضرة. (مات) في عصر يوم الخميس سادس عشر رمضان سنة ٨٤٥ خمسٍ وأربعين وثمانمائة بالقاهرة. ومن شعره: [من الطويل]

سَقَى عَهْدَ دِمْياطَ وحيَّاه منْ عَهْدِ ... فَقدْ زادَني ذِكْراه وَجْداً على وَجْدِي

وَلا زالتِ الأنواءُ يَسْقي سَحابُها ... دِياراً حكتْ منْ حُسنها جنَّة الخُلدِ